ابن حزم في (جذوة المقتبس) لتلميذه الحميدي

قال أبو عبد الله محمَّد بن فُتوح الحميديُّ (488هـ) رحمه الله في: ((جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس، وأسماء رواة الحديث، وأهل الفقه والأدب، وذوي النباهة والشِّعر)):

علي بن أحمد بن سعيد بن حزم بن غالب أبو محمد أصله من الفرس، وجده الأقصى في الإسلام اسمه يزيد مولى ليزيد بن أبي سفيان، كان حافظاً عالماً بعلوم الحديث وفقهه، مستنبطاً للأحكام من الكتاب والسنة، متفنناً في علوم جمة عاملاً بعلمه، زاهداً في الدنيا بعد الرياسة التي كانت له ولأبيه من قبله من الوزارة وتدبير الممالك، متواضعاً ذا فضائل جمة، وتواليف كثيرة في كل ما تحقق به في العلوم وجمع من الكتب في علم الحديث والمصنفات والمسندات شيئاً كثيراً، وسمع سماعاً جماً، وأول سماعه من أبي عمر أحمد بن محمد بن الجسور قبل الأربع مئة.

وألف في فقه الحديث كتاباً كبيراً سماه كتاب الإيصال، إلى فهم كتاب الخصال، الجامعة لجمل شرائع الإسلام في الواجب والحلال والحرام، وسائر الأحكام، على ما أوجبه القرآن والسنة والإجماع. أورد فيه أقوال الصحابة والتابعين ومن بعدهم من أئمة المسلمين في مسائل الفقه، والحجة لكل طائفة وعليها، والأحاديث الواردة في ذلك من الصحيح والسقيم بالأسانيد وبيان ذلك كله، وتحقيق القول فيه، وله كتاب الإحكام لأصول الأحكام في غاية النقصى وإيراد الحجاج؛ وكتاب الفصل في الملل وفي الأهواء والنحل، وكتاب في الإجماع ومسائله على أبواب الفقه، وكتاب في مراتب العلوم وكيفية طلبها وتعلق بعضها ببعض، وكتاب إظهار تبديل اليهود والنصارى للتوراة والإنجيل، وبيان تناقض ما بأيديهم من ذلك مما يحتمل التأويل. وهذا مما سبق إليه، وكذلك كتاب التقريب لحد المنطق والمدخل إليه بالألفاظ العامية والأمثلة الفقهية فإنه سلك في بيانه وإزالة سوء الظن عنه وتكذيب الممخرقين به طريقة لم يسلكها أحد قبله فيما علمناه، وغير ذلك.

وما رأينا مثله رحمه الله فيما اجتمع له مع الذكاء وسرعة الحفظ، وكرم النفس والتدين؛ مولده في ليلة الفطر سنة أربع وثمانين وثلاث مائة بقرطبة، ومات بعد الخمسين وأربع مائة.

وكان له في الآداب والشعر نفس واسع، وباع طويل، وما رأيت من يقول الشعر على البديهة أسرع منه، وشعره كثير، وقد جمعناه على حروف المعجم، ومنه:

هل الدهر إلا ما عرفنا وأدركنا ، فجائعه تبقى ولذاته تفنى

وإذا أمكنت فيه مسرة ساعةٍ ، تولت كمر الطرف واستخلفت حزنا

إلى تبعاتٍ في المعاد وموقفٍ نود ، لديه أننا لم نكن كنا
حصلنا على همٍّ وإثمٍ وحسرةٍ ، وفات الذي كنا نلذ به عينا
حنينٌ لما ولى وشغل بما أتى ، وغمٌّ لما يرجى فعيشك لا يهنا
كأن الذي كنا نسر بكونه ، إذا حققته النفس لفظٌ بلا معنى

وله من قصيدة طويلة خاطب بها قاضي الجماعة بقرطبة عبد الرحمن بن أحمد بن بشر يفخر فيها بالعلم، ويذكر أصناف ما علم، وفيها:

أنا الشمس في جو العلوم منيرة ، ولكن عيبي أن مطلعي الغرب
ولو أنني من جانب الشرق طالع ، لجد علي ما ضاع من ذكري النهب
ولي نحو أكناف العراق صبابة ، ولا غرو أن يستوحش الكلف الصب
فإن ينزل الرحمن رحلي بينهم ، فحينئذ يبدو التأسف والكرب
فكم قائل: أغفلته وهو حاضر ، وأطلب ما عنه تجيء به الكتب!
هنالك يدري أن للبعد قصة ، وأن كساد العلم آفته القرب!

ومنها في الاعتذار عن المدح لنفسه:

ولكن لي في يوسف خير أسوة ، وليس على من بالنبي ائتسى ذنب
يقول وقال الحق الصدق إنني ، حفيظ عليم ما على صادق عتب

وله من أخرى:

مناي من لدنيا علومٌ أبثها ، وأنشرها في كل بادٍ وحاضر
دعاءٌ إلى القرآن والسنن التي ، تناسى رجالٌ ذكرها في المحاضر

وأنشدني لنفسه، وأنا سألته:

ابن وجه قول الحق في نفس سامع ، ودعه فنور الحق يسرى ويشرق
سيؤنسه رفقاً فينسى نفاره ، كما نسى القيد الموثق مطلق

وأنشدني لنفسه:

لا تشمتن حاسدي إن نكبة عرضت ، فالدهر ليس على حال بمترك
ذو الفضل كالتبر طوراً تحت ميقعة ، وتارة في ذرى تاج على ملك

وأنشدني لنفسه:

لئن أصبحت مرتحلاً بشخصي ، فروحي عندكم أبداً مقيم

ولكن للعيان لطيف معنى ، له سأل المعاينة الكليم

وله في هذا المعنى:

يقول أخي شجاك رحيل جسم ، وروحك ماله عنا رحيل

فقلت له المعاين مطمئن ، لذا طلب المعاينة الخليل